

عبدة أوثان، والمنقاد من كهنة غير أهل لذلك. وقيل أن يترك خلوته كان قد أرسل للعدراء الكلية القداسة بواسطة ملائكتها صليبا كبيرا كانوا قد صنعوه له، وعليه كان يتمدد عادة ليصلي. فتقبّلت الصليب بالعواطف التي كانت توحىها إليها هذه الخشبة الخلاصية. فوضعتها في مصلاها حيث احتفظت بها دائما مع صليب يسوع المسيح، وبعد موتها أصبحت هذه الذخائر الثمينة إرثا للرسول.

وفي هذا الوقت بالذات، عندما تحولت بكليتها إلى ابنة المحبوب للغاية، سمعت وهي في انخفافٍ سامٍ صوتاً خارجاً من عرش ألي يقول لها: يا مريم! ابنتي! قدي لي ابنك ذبيحة. - يا إلهي الكلي القدرة! أجابت بقلبٍ شهيم! إن ابني هو لك أكثر مما هو لي! وستكون تقدمة عذبة لديّ بأن أكله إلى حيك، ولكن بالأحرى يجدر بي أن أسلمه لعدلك. إن الحنان يجعلني أجد التضحية التي تطلبها مني، تضحية كبرى ومع ذلك فلتكن مشيئتك، وليبسط ظل عدلك، ولتظهر محبتك، وليتمجد اسمك القدوس بخلاص الجنس البشري.

بعد تضحية يسوع بذاته لن يوجد تضحية معادلة لتضحية مريم، التي لو كان باستطاعتها، لكانت ضحّت بحياتها عدداً غير متناهٍ من المرات، إنقاذاً لحياة ابنها. أي عرفان للجميل يتوجب على البشر تجاهها، لأن فداءهم لم يكن ليتم، لو لم توحّد رضاها كأم مع رضى الأب الأزلي!

ومكافأة لكرمها الفائق رُفعت بالحال برؤيا حدسية حيث تقبّلت

لها ولد لا أستطيع أن أخترق أعماق نفسه كما هي الحال معها. فلنعمل معاً لاكتشاف من يكون هذان الشخصان ولنضطدّهما.

وكان هؤلاء الملاعين يرغبون في البدء بالعمل فوراً، ولكن يسوع المسيح لن يسمح بأن يتحولوا باتجاه أمه. واحتجب هو نفسه عن أنظارهم إلى حين خروجه إلى البرية، حيث أخذ يصلي من أجل الذين سيُجربون، وانظمت إلى صلواته العذراء الكلية القداسة ووعده ألي بالغلبة للذين يتلقظون باسم يسوع ومريم.

وفي هذا الوقت كان القديس يوحنا المعمدان يعيش في البرية حياة سرافيمية أكثر منها بشرية. لم يكن يتكلم إلا مع الله والملائكة بدون أن تشوشه البيئة الحواس التي حرّرها من جميع الأمور الأرضية، والتي هي عادة النوافذ التي يدخل منها الموت متخفياً بمظاهر جمال الخلائق الخداع. وتعزية له في وحدته كانت العذراء الكلية القداسة ترسل له ملائكتها مرة في الأسبوع، يخبرونه عن العجائب التي يصنعها الكلمة المتأنس. وعند بلوغه الثلاثين حصلت له رؤيا تجريدية كُشف له خلالها عن سرّ التجسد بكل وضوح، ومنها استلم الأمر بأن يقوم برسالته كسابق للمسيح. فذهب حافي القدمين، لابساً جلد جمل، متمطفاً بزئار من جلد. كان شاحب الوجه، ذا هيبة رفيعة وتواضع وقور، واحتشام مدهش، وشجاعة لا تُقهر وقلب ملتهب بالمحبة، وبكلامه الحادّ، الحماسي، والمخيف كالصاعقة، كان كما يلزم للشعب اليهودي الجاد والمتصلب والمحكوم من رؤساء